العالم الجديد
والفوارق بين الطبقات
بقلم الأستاذ سيد قطب

خطب مستر إيدن فى نوتنجهام ، يوم ٢٢ يوليه الماضى خطبة طويلة تناولت الحاضر والمستقبل، ومما جاء فيها خاصا بالعالم الجديد المنشود بعد الحرب ، قوله: "يجب ألا نصبر مرة أخرى على حالة البطالة، وعلى الفوارق السحيقة بين الطبقات والتناهى فى الغنى والتناهى فى الفقر ، وحرمان الكثيرين من فرص الحياة" .

وخطب هذا الرجل العظيم من قبل فى أدنبره فورد فى خطبته : " لن تذوقوا طعم السلام بدون إصلاح اجتماعى ، وإذا ظهرت فى العالم آثار البطالة وسوء التغذية وهبوط مستوى المعيشة وانتشرت الفاقة بدون علاج مع إمكان علاجها ، فإن أركان السلام تصبح معرضة للخطر" .

ومن خلال هذه الفقرات وكثير غيرها مما يلقيه زعماء الأمم فى هذه الفترة ولا سيما مستر روزفلت ومستر تشرشل، نستطيع أن نتبين سمات العالم الجديد ، ونستطيع أن نلمح أن هذا العالم الجديد لن يصبر على كثير من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة اليوم . وعلى وجه التخصيص لن يصبر على "الفوارق السحيقة بين الطبقات"، ولن يطيق "التناهى فى الغنى والتناهى فى الفقر" ، ولن يهضم " حرمان الكثيرين من فرص الحياة" .

ومستر إيدن الذى يندد بفوارق الطبقات ويندد بالتناهى فى الغنى والتناهى فى الفقر ، ويندد بحرمان الكثيرين من فرص الحياة ، هو وزير خارجية الدولة التى سنت ضريبة التركات بنسب ضخمة فقضت بالفعل على الكثير من فوارق الطبقات، والتى جعلت الضرائب تصاعدية حتى لتبلغ فى بعض حالاتها ٩٥ فى المائة فقضت بالفعل على التناهى فى الغنى والتناهى فى الفقر ، والتى جعلت الخدمات الاجتماعية فريضة قومية تصل إلى كل محتاج إليها وتنقل إليه الصحة والعلم فقضت بالفعل على الأسباب التى تحرم الكثيرين من فرص الحياة.

ولكن العالم الجديد يتطلب أكثر مما صنعت انجلترا حتى الآن. وانجلترا صنعت كثيرا جدا، منه ما ذكرنا ، ومنه ما لم نذكر من مراعاة الجانب الاجتماعى فى كل ضريبة تفرضها وكل قانون تصدره وكل إجراء تهم به ، للتحقق من أنه لا يضر بالطبقات الفقيرة بل يفيدها، ويحقق التوازن بينها وبين الطبقات الأخرى .

فما شأن مصر إذن مع العالم الجديد ، إذا كانت انجلترا تجد نفسها فى حاجة إلى إجراءات جديدة لتنسجم مع هذا العالم ؟

مصر التى يتناهى فيها الغنى ويتناهى فيها الفقر إلى درجة يعجز خيال أى انجليزى عن تصورها . مصر التى تبلغ فوارق الطبقات فيها أن يعيش فرد بعشرة آلاف جنيه فى الشهر ، ويعيش فرد آخر بجنيه واحد أو بنصف الجنيه . أو بلا شىء ! مصر التى يبلغ فيها المحرومون من فرص الحياة ملايين ، حرموا الصحة وحرموا العلم وحرموا المال : الأسباب الثلاثة الضرورية للنجاح فى الحياة .

ما شأن مصر هذه مع العالم الجديد الذى ستجد نفسها فيه بعد الحرب ؟ وكيف تنسجم معه ، وهى التى تزعم لنفسها وللعالم أنها أمة متحضرة ، تمتاز على الزنوج وسكان الكهوف فى قديم الزمان ،

لست أدرى كيف يتصورنا الأجانب المقيمون فى مصر؟ إنهم يختلطون ببعض الأوساط عندنا فيرون أرقى ما وصلت اليه الحضارة البشرية ، وأعلى ما تفنن فيه المتاع الإنسانى ، ثم يختلطون ببعض الأوساط فيرون أحط ما تهبط اليه الحيوانية ، وأشد ما يصيب الأحياء من حرمان .

إنهم يرون قصورا وأحياء هى قطعة من باريس ، ثم يرون على مقربة منها مباءات ومناقع لا يراها إلا المستكشفون فى بلاد الزنوج والأمم البدائية الفقيرة .

إنهم يرون السيارات الفخمة والأزياء الراقية و بريق النعمة يخطف الأبصار فى الطرقات ، ثم يرون بجوارها الأقدام الحافية القذرة ، والأسمال البالية المهلهلة ، والوجوه الذابلة المريضة ، والعيون الزائغة الرمدة ، والبؤس القاسى الشنيع .

إنهم يرون المتسولين والمشردين والعجزة والمشوهين وذوى الأمراض العفنة والجروح القذرة منتشرين فى الطرقات مع الذباب المحوم والحشرات السارية والقطط الضالة والكلاب الشاردة ، وهم جميعا يعثون فى صناديق القمامة عن فتات الطعام : الآدمى مع القط مع الكلب مع الذبابة مع الحشرة سواء بسواء !

* * *

يقول أحد محررى جريدة البلاغ تحت عنوان " ساعات مع وزير الشؤون الاجتماعية" مايأتى عن معاليه :

" رأى التفاوت بين الطبقات هائلا ، ورأى التوزيع فى الثروة سيئا ، ورأى أن المسيطرين على التشريع شركاء فى التوزيع ، فأقل محاولة منه لاعادة التوازن إلى الطبقات

يحدث رجة اشتراكية لايرضاها كثيرون ويكسبه خصومة المشرعين فلا يقر تشريعاته أحد، فماذا يصنع ؟

" رأى أن الحكومة تملك مائة ألف من الفدادين تزرع فعلا ، وأكثر من مليون من الفدادين يمكن أن تستصلح فى أقصر وقت ممكن ، فلو أن كل " عائلة " من عائلات القرى ممن لايملكون شيئا منحت خمسة فدادين لانتقلنا فورا بعشرين ألف أسرة إلى مستوى الطبقة الوسطى ، ولانتقلنا فى خلال سنوات بربع مليون عائلة إلى هذا المستوى ، فكأننا نستطيع الآن بمائة الألف من الفدادين أن نمد يد الإنقاذ السريع إلى عشرين ألف أسرة وأن ندخل السعادة إلى قلوب مائة ألف من أشقياء المواطنين إذا افترضنا أن متوسط الأسرة يدور حول خمسة أفراد . . . فأمر الوزير بوضع تشريع بهذا التوزيع .

وليس من شك أنها براعة من الوزير حيال المشكلة ، وحل موفق من الحلول التى تبتكرها البراعة . ولكن هذا الحل نفسه يطلعنا على حقيقة العقبات التى تعترض الوزير أو تعترض الدولة ، وتعترض الإصلاح ، تلك الحقيقة هى أن "المسيطرين على التشريع شركاء فى التوزيع " فلا بد من براعة كبراعة الأستاذ عبد الحميد عبد الحق حتى تتفادى الاصطدام بهذه العقبة !

ولكن الوطن يريد . والإصلاح الاجتماعى يريد . والاتجاه العالمى كله يريد . فما رأى من لايريدون أن يجيبوا الوطن ، ولا الإصلاح الاجتماعى ، ولا الاتجاه العالمى ؟ لاتحسب أنهم يصرون على وضع لايرضاه الوطن ولا يرضاه العالم .

إن براعة الوزير قد وصلت إلى مشروع يحسن حالة ربع مليون أسرة فى أقصى حدوده أى مليون من السكان . فماذا تصنع الملايين الأخرى ؟ لابد من مشروعات أخرى فى هذا السبيل ؟

يقول مندوب البلاغ : " عبد الحميد عبد الحق مؤمن بأن " الفقر " هو الدافع إلى كل جريمة ، وهو السبب فى كل نقص . وحديث " الفقر " عنده " طقطوقة " لا يمل ترديدها " .

" وهو مؤمن أيضا بأن الإصلاح وحدة لا تتجزأ ، فلا خير فى أن تعالج مرضا يأكل جسم الفلاح من قرون ويلده فيه سوء التغذية ، ثم تتركه جائعا ليرتد المرض إليه ... ... الخ " .

هذا الإيمان " هذه العقيدة ، هى التى تنقصنا ، فلو آمنا جميعا هذا الإيمان لحلت المشكلة ولما عاد وزير الشؤون الاجتماعية ، يضطر إلى استخدام براعته ، حتى لا يصطدم بعقائد اجتماعية مالية ، ويحرص كل فرد على ما فى يده وما يحقق مصلحته الخاصة .

نريد أن يصبح كل مسؤول " مؤمنا " مثل هذا الإيمان بأن الفقر هو السبب فى كل نقص ، و بأن الإصلاح يجب أن يكون وحدة .

نريد هذا الإيمان لنستطيع أن نعفى الطبقات الفقيرة من كل ضريبة وأن نجعل الضرائب تصاعدية حسب تصاعد الثروة كما تصنع جميع بلاد العالم المتمدن .

نريد هذا الإيمان لنمكن الطبقات العاملة من الحياة الكريمة المعقولة ، فلا تكون لهم شكاوى متجددة يضطر الوزير أن يخف إليها بنفسه بين الحين والحين .

نريد هذا الإيمان لنتمكن من فرض ضرائب إضافية للإصلاح الاجتماعى نحمى بها الأطفال من التشريد والفتيات من البغاء والمرضى والعجزة والمشوهين من التسول فى الطرقات .

نريد هذا الإيمان لننقل الريف المصرى إلى بيئة تصلح للآدميين ، ونوفر للريفيين من الضروريات ما نوفر مثله للحيوانات والآلات .

* * *

نريد هذا الإيمان لنكون آدميين ، ولنعيش مع العالم الجديد فى القرن العشرين .

وليس المطلوب أن تشمل المساواة جميع الناس ، فذلك مستوى لم تصل إليه البشرية بعد ولا تصلح به أوضاعها قبل أن يأتى موعده فى عالم السماء .

إنما المطلوب هو ما يعبر عنه مستر إيدن "بعدم الحرمان من فرص الحياة". المطلوب أن يوضع سلاح الجهاد فى أيدى جميع الأفراد ، ثم يتركون يتنافسون بمواهبهم فيعلو من يعلو ويهبط من يهبط ، ولكن بعد أن توجد الفرصة للجميع بلا محاباة .

من حق كل فرد فى الأمة أن يأكل من أى طريق ، وكل وضع اقتصادى أو اجتماعى يحرم بعض الأفراد من الطعام الضرورى الذى يقيم الأود ويحفظ الصحة هو وضع باطل أو فاسد ، يجب أن يعالج كيفما كانت النتائج والأحوال ، فلن يوجد وضع أسوأ ولا أفسد من ميت آدمى بلا طعام .

ومن حق كل فرد فى الأمة أن يعمل فإذا لم يجد عملا مع رغبته فيه وقدرته عليه ، فيجب أن يجد موردا يأكل منه . إن الجوع جريمة لا ينبغى أن يقترفها أحد ، ولا يجوز أن يكره المجتمع عليها أحدا ، و إلا فهو مجتمع مجرم يستحق العقاب .

ومن حق كل فرد فى الأمة أن ينال نصيبا معينا من العلم ، لأن العلم أحد الأسلحة للصراع فى الحياة ، كما أن من حق كل فرد أن ينال نصيبا معينا من صحة الجسم للسبب نفسه . وكل وضع اقتصادى أو اجتماعى يحرم فردا واحدا من العلم الضرورى ومن الصحة الضرورية لأى سبب من الأسباب ، فهو وضع فاسد يجب تغييره بلا إمهال .

هذه هى الخطوط الرئيسية فى بناء المجتمعات ، أما التفصيلات فليس هذا مكانها .

ينبغى أن تعمر كل نفس عقيدة اجتماعية واحدة هى أنه لايجوز أن يجتمع الغنى الفاحش والفقر الفاحش على هذه الصورة فى وطن واحد بحال من الأحوال . لا يجوز أن يجوع فرد واحد لأنه لا يجد عملا أو لأنه يعمل ثم ينقص أجره عن الطعام والسكنى و للباس . لايجوز أن يكون هناك طفل واحد مشرد ، ولا عاجز واحد متسول ، ولا فتاة تبيع عرضها لتشترى الطعام !

ينبغى أن تعمر كل نفس عقيدة اجتماعية واحدة : هى أنه لا يجوز أن يكون حى المدابغ وتلال زينهم وعرب اليسار ، قطعة من القاهرة التى تضم المعادى وجاردن سيتى والزمالك. لا يجوز أن تكون القاهرة عاصمة لهـذا الريف المصرى الذى نعرفه ونشفق من تصويره . لا يجوز أن تكون فنـادق ومطاعم ومشارب الكونتنتال وشـبرد وجروبى وسان جيمس والبارزيانا فى العاصمة التى ينبش الآدميون فيهـا مع القطط والكلاب والصراصير والذباب صناديق القمامة على مرأى من الناس !

ينبغى أن تعمر كل نفس عقيدة اجتماعيـة واحدة : هى أنه يجوز أن يكون هناك غنى وأن يكون هناك فقر ، ولكن لا ينبغى أن يصـل الفقر إلى هـذا الدرك السحيق ، الذى يطلق الأطفال المشردين والعجزة المشوهين ، والفتيات المعرضات للفتنة ، جياعا عرايا فى الطرقات يتسولون !

أما الوسائل فتختلف فيها وجهات النظر ، ويسلك إليها من يريد أكثر من طريق .

سيد قطب